

شعرية المكان في ديوان "لا تهدموا البرج الأخير"
للشاعر "محمود مفلح"

Poetry of the place in the book " la tahdimuu alburj
al'akhir" For the poet "Mahmoud Mufleh

إعداد

سلطان إبراهيم عبد الرحيم
Sultan Ibrahim Abdul Rahim

Doi: 10.21608/mdad.2021.184422

القبول : ٢٢ / ٤ / ٢٠٢١م

الاستلام : ٧ / ٤ / ٢٠٢١م

عبد الرحيم ، سلطان إبراهيم (٢٠٢١). شعرية المكان في ديوان "لا تهدموا البرج الأخير" للشاعر "محمود مفلح"، *المجلة العربية - مداد* ، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٥ (١٤)، ص ص ٣٣ - ٥٦.

شعرية المكان في ديوان "لا تهدموا البرج الأخير" للشاعر "محمود مفلح"

المستخلص :

لقد شكل المكان في الشعر العربي بؤرة فنية للشعراء، ابتدأها الشاعر الجاهلي بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار واستمر حضور المكان معانقا حضور القصيدة، ليؤكد على ما للمكان من خصيصة فنيّة في الروح العربية على مر العصور ، ولاشك أن ارتباط الشعر بالمكان في الشعر الفلسطيني ارتباط وثيق ظهر جليا في تجارب رواد الشعر الفلسطيني كما ظهر أيضا في تجربة الشاعر محمود مفلح وخاصة ديوانه : لا تهدموا البرج الأخير" فالمكان عنده يأخذ أبعادا ارتبطت ارتباطا وثيقا بحياته الشخصية التي شهدت أحداثا ووقائع وتقلبات كثيرة، وقد مثل هذا الديوان محطة مهمة في حياته؛ لذا اخترته للبحث محاولا استجلاء دلالات المكان للكشف عن الأنساق الثقافية والرؤى الفكرية المضمرة في شعر محمود مفلح.

الكلمات المفتاحية: الشعر العربي - مكان- فلسطين-الدلالة – النسق الثقافي

Abstract:

The place in Arabic poetry has formed an artistic focus for poets. The pre-Islamic poet started it by standing on the ruins and the crying of the homeland, and the presence of the place continued to embrace the presence of the poem, to confirm the artistic specialty of the place in the Arab spirit throughout the ages. There is no doubt that the connection of poetry with the place in Palestinian poetry is a close link that appeared It was evident in the experiences of the pioneers of Palestinian poetry, as it also appeared in the experience of the poet Mahmoud Mufleh, especially his book: Do not demolish the last tower. The place for him takes on dimensions closely related to his personal life, which witnessed many events, facts and vicissitudes, and this diwan represented an important station in his life, so I chose it for research. Attempting to elucidate the significance of the place to reveal the cultural patterns and the implicit intellectual visions in Mahmoud Mufleh's poetry.

Keywords: Arabic poetry - place - Palestine - significance - cultural pattern

تمهيد: المكان بين الذاكرة اللغوية والذاكرة الشعرية.

يُعدُّ المكان عنصراً مهماً من عناصر التجربة الشعرية، والمكان في الشعر يتشكل من خلال اللغة الشعرية التي تمتلك بدورها طبيعة مزدوجة، فلها بُعد مادي فيزيائي يربط بين الألفاظ وأصولها الحسيّة، ولها نظام من العلاقات التي تعتمد على التجريد الذهني والبعد التخيلي. والمكان في الشعر يتشكل من خلال اللغة الشعرية التي تمتلك بدورها طبيعة مزدوجة، فلها بُعد مادي فيزيائي يربط بين الألفاظ وأصولها الحسيّة، ولها نظام من العلاقات التي تعتمد على التجريد الذهني والبعد التخيلي، إن ارتباط الشعر العربي بالمكان ارتباط وثيق وقديم قدم نشأة الشعر بل إن تسمية الجزء الشعري بالبيت هو إشارة واضحة إلى هذا الارتباط الوثيق بين المكان والذات الشاعرة في الوجدان العربي وهو ارتباط مستمر في الذائقة العربية قديماً وحديثاً.

والمكان لغة: هو الموضع والجمع أمكنة وجمع الجمع أماكن وفلان مكين عند فلان بين المكانة. (١)

و"المكان يتنازعه في اللغة اشتقاقان؛ إذ يمكن إحالته إلى أي جذر من الجذرين اللغويين (م.ك.ن) أو (ك.و.ن) وهذه أولى الإشكاليات التي يطرحها، فلسنا إزاء تصورين فحسب. بل موقفين يثريان المحتوى الدلالي للمكان في بعده الذهني. وينبثق هذان الموقفان من إدراك للدور المزدوج الذي يؤديه المكان في حياتنا، وهو - من ناحية - يمثل ضرورة من ضروريات الاستقرار والاحتواء، ومن ناحية أخرى توجد ثمة بدهة تحيل إلى كونه شرطاً قبلياً للحدوث والحضور والتبدي للعيان" (٢)

فالمكان في الذاكرة الشعرية ليس مجرد موضع جغرافي بوصفه الاصطلاحي بأنه: (وسط غير محدد يشتمل على الأشياء) (٣) ولا بكونه (أبعاداً هندسية وحجوماً) (٤) ولا يعني: (مجالاً ممتداً يشمل الأرجاء والأشياء) (٥) فهذا المعنى يظل ضيقاً، إن لم نقل قاصراً عن المعنى المراد في تجليات المكان في الشعر ذلك " أن الوعي الشعري يعيد تشكيلاً شحن عناصر العالم بكل القيم التي

- ١- ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثالث دار صادر بيروت ١٩٦٨، ص ٥١٧.
- ٢- د. هدى عطية عبد الغفار: جماليات المكان في الشعر المعاصر، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ص ٣٨-٣٩.
- ٣- إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية القاهرة ١٩٨٣، ص ١٩١.
- ٤- إعتدال عثمان: إضاءة النص، دار الحداثة بيروت لبنان ١٩٨٨ ص ٥.
- ٥- د. أعتاب بالخير: مفهوم المكان في القصيدة العربية، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد: ١١٥/١١٤، سنة: ٢٠٠٠، ص: ١٣٤.

تدعم وجوده وتكفل للذات خلاصتها.

هذه هي الفكرة المبدئية التي ينبغي الالتفات إليها ووضعها في الاعتبار حينما نتحدث عن تأسيس جمالي للمكان^(٦) فالمكان هنا هو الموضع الذي عاش فيه الإنسان واصطبغ برائحته وملامحه؛ لذلك مهما ابتعد عنه يظل محفورا في ذاكرته، مرسوما في وجدانه، فيفعل الإنسان بهذا المكان ويتعايش معه (وفي هذا التعايش المشترك يصبح كل شيء مشحونا بمكانه الأليف الذي هو مركز كل المكان)^(٧) يحن إليه كلما هاجت مشاعره وانتقضت ذكرياته الكامنة في جوانحه وبؤرة شعوره، وفي إشارة دالة إلى هذه الفاعلية الشعاعية المكانية يقول (باشلار): "هذه الفاعلية التي تتسم بها الشعاعية المكانية، والتي تتوجه من الألفة العميقة إلى المدى اللانهائي، متحدة في تمدد متماثل، نشعرنا بالفخامة تنبعث في داخلنا. وكما قال ريلكه: "عبر كل كائن إنساني يفتح مكان فريد حميم على العالم .. ويبدو أن عبارة (باشلار) ومفاد عبارة ريلكه: "هو محاولة استخلاص دلالة الفاعلية للطوبوغرافيا وتأثيرها على الذات الشعاعية، وما تفتحه في النص من فضاءات"^(٨) حين تختمر في الذات الرائية فتلبس الأمكنة والمدائن، لونا من التشكيل الفني الخاص يتفاعل في تخلقه وتناميه الفذ، مع ماضي الذات من وجه، ومع تداعيات اللحظة الأزومة من وجه آخر"^(٩) فالمكان الهندسي البحث لا يمتلك قيمة فنية مالم يصطبغ بالذات الشعاعية ويحدث هذا التفاعل المؤثر في العمل الفني.

مدخل: أبعاد المكان في ذاكرة محمود مفلح

لما كان المكان عند الشاعر العربي محمود مفلح يأخذ أبعادا ارتبطت ارتباطا وثيقا بحياته الشخصية التي شهدت أحداثا ووقائع وتقلبات كثيرة، حيث ولد الشاعر في عام ١٩٤٣م في بلدة "سمخ" على ضفاف بحيرة طبريا في فلسطين تلك البلدة المجلة بالعظمة والجمال، والمكللة بمفاتيح الطبيعة الخلابة، وحين حلت النكبة بفلسطين في عام ١٩٤٨م انتقل الشاعر مع أسرته إلى سورية ليستقر في مدينة "درعا" ثم تنقل في مدن سوريا من "درعا" ثم مدينة

٦ - هدى عطية عبد الغفار : جماليات المكان في الشعر المعاصر ، ص ٥٣.

٣ - جاستون باشلار: جماليات المكان ، ترجمة غالب هلسا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٤، ص ١٨٥.

٦ - السابق ص: ١٨٤.

٨- د. حسام عقل: بحث تجليات المكان في القصيدة المصرية الجديدة ص: ١٥. كتاب البيئات الثقافية والتنوع الأدبي مؤتمر اليوم الواحد الأدبي بفرع ثقافة الجيزة دورة الدكتور عبد الوهاب عزام ٢٠١٦م.

"السويداء" ثم درس اللغة العربية في جامعة "دمشق" ونال إجازتها عام ١٩٦٧م، ثم ارتحل الشاعر إلى المملكة المغربية معاراً إليها في عام ١٩٧٦م، كما تنقل الشاعر في ربوع الوطن العربي بين الأردن والسعودية ولبنان ليحيط بحاله بمصر^(٩) مترجماً لترحاله ومعاشته لتلك الأمكنة في تجارب شعرية مثلت صورة لحياته بكل تفاصيلها وجزئياتها، فالشاعر محمود مفلح الذي ولد في عام ١٩٤٣م، وما زال يحيا ويبدع؛ قد عاش مرحلة هامة من مراحل القضية الفلسطينية فانفعل بها وتفاعل معها وكابد بنفسه حياة التهجير والغربة.

وقد تعرض شعر مفلح للدراسة من خلال زوايا متعددة مثل الدراسة التي تناولها الدكتور صبري عبد الدايم تحت عنوان: "أحزان الوطن" والتي خصصها في لأحد دواوين الشاعر وهو ديوان: "شموخاً أيها الوطن" وكذلك دراسة عن "البعد الاستشراقي في شعر محمود مفلح" للباحثتين الجزائريتين: "سميحة بلاغمة" و"صليحة ربعي"^(١٠) أو دراسة "شعر الصحوة عند محمود مفلح"^(١١) وتكمن جدّة هذه الدراسة التي تتناول شعرية المكان عند محمود مفلح من خلال ديوانه "لا تهدموا البرج الأخير" في استجلاء واستكناه تشكّل المكان وتظهره بكافة أبعاده ودلالاته ومستوياته عند محمود مفلح، عبر نصوصه الشعرية المنظومة في هذا الديوان

ولاشك أن ارتباط الشعر بالمكان في التجربة الشعرية الفلسطينية ارتباط وثيق وقد ظهر ذلك الارتباط جلياً في تجارب رواد الشعر الفلسطيني من أمثال إبراهيم طوقان وفدوى طوقان، وعبد الرحيم محمود، ومحمود درويش، وسميح القاسم، وغيرهم كما ظهر واضحاً جلياً في شعر الشاعر محمود مفلح وخاصة في ديوانه "لا تهدموا البرج الأخير" والذي جاء حصاد السنوات الثلاث الأخيرة من عمر الشاعر كما أشار لذلك في مقدمة الديوان^(١٢)

المكان .. الطفولة

للمكان الذي ينشأ فيه الإنسان أثر وجداني خاص يبقى في نفس الإنسان ويستمر معه طيلة الدهر؛ ولذلك قال أبو تمام:

^٩ - موقع الشاعر على شبكة الألوكة الثقافية.

^{١٠} - في اللقاء الخاص الذي جمعني بالشاعر في رابطة القلم العربي بالقاهرة يوم السبت الثامن عشر من نوفمبر ٢٠١٧م.

^{١١} - د. خليل أبو ذياب ملامح جيل الصحوة في شعر محمود مفلح دراسة بمجلة الأدب الإسلامي العدد ٤٨ - ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

^{١٢} - الشاعر محمود مفلح: ديوان لا تهدموا البرج الأخير، القاهرة دار بورصة الكتب للنشر والتوزيع ٢٠١٦م ص٧.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
 كم منزل في الأرض يهواه الفتى ... وحينه يبقى لأول منزل. (١٣)

لأن هذا المكان الأول يحمل ذكريات تجمع بين الحب والحماية، ويبقى هذا المكان "المكان الذي نحب، وهو مكان ممتدح لأسباب متعددة ... إننا ننجذب نحوه؛ لأنه يكتف الوجود في حدود تتسم بالحماية" (١٤) ففي أحضان هذا المكان يعيش الإنسان لحظات العمر الجميل و"العمر الجميل هو ملامح الجمال العابرة للزمان والمكان، هو الحلم الذي نستدعيه لتستأنس به أرواحنا، هو الشعر والبراءة والصفاء، هو الحسن" (١٥) وتبقى وظيفة الشاعر التي تنفعل مع هذا كله فتضفي على الجمال جمالا فوق هذا الجمال، فالشاعر الحق هو الذي يستنطق لنا المكان ويستدعي لنا الذكريات ويهز فينا أوتار الحنين ويحرك كوامن النفس لترى من الجمال ما لم تكن ترى، وتهيم بمشاعرها في عوالم لم تكن تهيم بها إلا حين أمدها الشاعر بأجنحة من خياله فصارت تحلق معه وتطوف في تلك العوالم، ولعل ذلك هو الذي قال عنه الشاعر "إيليا أبو ماضي" في قصيدته:

عندما أبدع هذا الكون ربُّ العالمينا
 ورأى كل الذي فيه جميلا وثمانيا
 خلق الشاعر كي يخلق للناس عيونا
 تبصر الحسن وتهواه حراكا وسكونا
 وزمانا ومكانا وشخوصا وشؤونا.

"ولا شك أن أكثر لحظات الماضي التصاقا بالنفس وقربا منها، وأشدّها فاعلية في مواجهة حس التناهي الملازم لأحباطات الحاضر، هي لحظات الطفولة بما تنطوي عليه من ذكريات هنيئة، وبما توفره من ملاذ مؤقتة من هجير الواقع وحاضرته الأيلة للزوال" (١٦)

وهذا هو عين ما فعله الشاعر محمود مفلح حين طوف بمشاعره حول موطنه الأول؛ حيث ولد الشاعر في قرية "سَمَخ" وهي قرية فلسطينية بالقرب من بحيرة طبريا تمتاز بالخضرة والنضرة والأجواء الصافية التي فيها تتفتح براعم

١٣ - أبو تمام: حبيب بن أوس بن الحارث الطائي.

١٤ - جاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ص ٣١.

١٥ - محمد علي عزب: تجليات طائر العمر الجميل دراسة نقدية في أشعار سيد حجاب، صدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة إقليم القاهرة وشمال الصعيد ٢٠١٧م.

١٦ - هدى عطية عبد الغفار: جماليات المكان في الشعر المعاصر، ص ١٨٥.

الشعر، وهي قرية شاعرة أو مشعرة فقد أنجبت عددا من شعراء وأدباء فلسطين الذين طبعت لهم أعمال أدبية ومن بينهم الروائي الفلسطيني يحيى خلف، والشاعر صالح الهواري، والشاعر فواز عيّد، وكذلك الشاعر أحمد مفلح أخو الشاعر، والشاعر عدنان عمامة، والشاعر زياب عزيز. (١٧)

وقد أُشربَ قلب مفلح حب قرينته، وامتزج هواها بنبضات قلبه وخلجات نفسه، فها هو يطوف حول قرينته بقلب الواله المشتاق في قصيدته التي امتطى فيها ثبج البحر الخفيف لينفت عن طاقاته الشعورية تجاه بلده ومسقط رأسه "سمخ" فهتف قائلا:

سمخٌ والتراب مسكٌ وعنبر
جَلَّ من أبدع الجمال وصوّر. (١٨)

ها نحن نرى الذات الشاعرة المحبة، وقد شدّها الشوق إلى "سمخ" فلم يعد يبصر فيها ما يشاهد واقعا، وإنما أبصر بعين الشاعر أن تراب "سمخ" هو المسك والعنبر، وهو تعبير يستمدّه الشاعر من موروثه الديني الذي يخبر إن الجنة في الدار الآخرة ترابها المسك، فهو هنا يضفر الشوق بالإجلال والتقدير، فالمكان الذي يرتبط به الإنسان وجدانيا حين تستعيد الذاكرة صورته تكشف له من خلال تأمله "لا عن وجوده الواقعي، بل عن بعده العاطفي الذي اندس في موجوداتنا الشعورية والجمالية فهو يعيش في داخل جهازنا العصبي كمجموعة من الأفعال التي لا تكرر الوجود المادي المشخص له، بل بوصفه ذكرى، ومن هنا تصبح صورته ذات طبيعة شعرية" (١٩) ولتطمئن القلوب إلى أن ما صاغه حقيقة وليس خيالا أو شطحة من شطحات الشعراء، يبادر مسبحا من خلق هذا الجمال وصوره وأبدع بلده على هذه الصورة، وربما يقدم تبريرا منطقيا حتى لا يلوم عليه لائم أو يعجل عليه عادل حين أخبر عن بلده بغير الواقع ولسان حاله يقول: لا تعجبوا ولا تعجلوا ولا تلوّموا عليّ؛ فقريتي التي أحبها:

"سمخٌ" بلدتي ومسقط رأسي
وبها العيش كان لوزا وسكّر. (٢٠)

ف "سمخ" بلدة الشاعر ومسقط رأسه وحياته بها كانت في نظره لوزا وسكرا وحياة طيبة، يعدد الشاعر فيها ألوان النعيم والمتع التي ألّفها الشاعر وهام بها

٢ - في لقاء خاص مع الشاعر برابطة القلم العربي يوم السبت الثامن عشر من نوفمبر ٢٠١٧م.

١٨ - ديوان لا تهدموا البرج الأخير طبعة دار بورصة الكتب للنشر والتوزيع ص ٧٤.

١٩ - علي حداد: جماليات المكان عبر ذاكرة الطفولة (قراءة في الانبهار والدهشة لزيد مطيع دماج) ضمن كتاب (زيد مطيع دماج، دراسات وقراءات نقدية اليمن ٢٠٠٩ ص ٣).

٢٠ - ديوان لا تهدموا البرج الأخير ص ٧٤.

فيقول:

"قد عشقنا فجر البحيرة فيها
وشمنا بها النسيم المعطر
ما أذ الشراب ماء زلالا
وأذ الطعام زيتا وزعتر
إن كوخا بها يعادل قصرا
فارها من قصور كسرى وقيصر. (٢١)

فالشاعر يُصحبنا معها ويجذب إحساسنا إلى البحيرة التي تقع قرينته على ضفافها، وهي بحيرة "طبرية" فيصف تلك الأنسام المعطرة التي تهب فجرا، والتي تعشقها قلب الشاعر واستلذ العيش بقربها واستطابت حياته إلى جوارها فوجد لذة الشراب والطعام؛ فالماء في فمه هو الماء الزلال، كما يستلذ الطعام رغم كونه طعاما عاديا، وهو الزيت والزعتر، إلا أنه يشعر بلذته فعشقه لقرينته وموطن طفولته جعل الأشياء العادية أجمل ما تكون؛ فالمكان هنا هو الذي يرفع من قيمة الأشياء حتى أن الكوخ في تلك البلدة ليعادل القصر المنيف من قصور كسرى وقيصر تلك القصور التي بالغ الناس في وصفها على مدار الأزمنة. ثم ينتقل الشاعر نقلة شعورية ليقارن بين حياته الهائلة وطعمها في قرينته وما يعيشه الآن من بعدها فيقول:

لم أجد في الحياة بعدك طعامًا
أنا أمشي على زجاج مكسر. (٢٢)

والشاعر يخبرنا أنه لم يفقد طعم الحياة وحسب، بل إنه من بعدها يحيا في ألم وعنت يتأذى من بعدها تأذى من يمشي على الزجاج المكسر، ثم يعود بعد تلك النقلة منجذبا إلى قرينته مرة أخرى واصفا أيام طفولته في تلك القرية:

كم درجنا على التراب صغارا
ولبسنا التراب ثوبا معصفر
سمك المشط في البحيرة يلهو
وعلى الساحل الحبيب تبختر
وبها البرتقال يكتب شعرا
فاسأل التين عن قصائد مرمر
أبها الجبل إن جذرك باق
فتوغل في عشقها وتجذر. (٢٣)

٢١ - السابق

٢٢ - السابق ص ٧٥

والشاعر هنا يمتزج بالأرض والتراب الذي درج عليه صغيراً ويستمر على نفس المنوال من تشعير المكان وامتزاجه به فهو يلبس ترابه كالثوب المعصفر. وعلى كل حال فموطن الطفولة يضيفي الجمال والحيوية على كل شيء في ناظره، فها هو يرقب سمك المشط في البحيرة وهو يلهو بها أو يتبخر على ساحلها الذي ما ورد ذكره على خاطر الشاعر، إلا وبادر بوصفه بالحييب فالمكان هنا مترع بالجمال والشاعرية، حتى أن البرتقال بقريته يكتب الشعر وكذلك التين فالبرتقال، والتين في قرية الشاعر يكتبان قصائد رائعة الجمال، وهي في جمالها أشبه بالمرمر؛ فكما أن البرتقال والتين في قريته شاعرين، فهذا الجبل الصامد المتجذر في هذه الأرض قد تجذر في تلك الأرض، وقد صرح الشاعر كاشفاً سر تجذر الجبل وبقائه في تلك الأرض، وهو أنه عاشق متوغل في العشق لها هائم بها.

ثم ينتقل الشاعر من عشق الجبل إلى عشق الشعب الذي ينتمي إليه الشاعر، ذلك العشق الذي سيقصر مدة الغياب، وقد تحول إلى غضب شعبي متفجر في الصدور، والشاعر هنا يمزج بين مشاعره الخاصة والمشاعر العامة فيقول: لن يطول الغياب عنا وهذا غضب الشعب في القلوب تفجر. (٢٤)

بل إن حالة العشق لأرضه كما تسري في الجبل الراسخ والشعب الغاضب فهي كذلك تسري في تلك المفاتيح التي هي كالنساء المتعطرة، وهي صورة تشع بالأمل في اقتراب الفتح حيث يجمع الشاعر كلمة المفاتيح ليدل على أن أسباب فتح قريته وانتهاء غربته عنها كثيرة، وأبوابه متعددة ومفاتيحه مهينة للفتح: والمفاتيح في يدي نساءً عاشقات قلوبها تتفطر. (٢٥)

ويختتم الشاعر قصيدته المترعة بحب بلده موطن طفولته بإشهاد الله على هذا الحب المستمر، والعشق الدائم لها رغم الفراق وأن حبه هذا لم يتغير رغم ما مر به، وما مر عليه، ولعل في وضعه نقطتين بعد كلمة فارقتها إشارة إلى الأشياء الكثيرة التي مرت به في رحلة الفراق وهو مع كل ذلك لم ولن يتغير: "شهد الله ما تغيرت يوماً

٢٣ - السابق، وأنوه هنا على هنة وقع فيها الشاعر وهي مخالفته للقاعدة، فكلمة المعصفر منصوبة على أنه صفة للثوب، وهنا يقتضي عند الوقف عليها أن يقول ثوباً معصفاً، ولكن القافية اضطرت به إلى أن يحذف الألف ويقف على الراء بالتسكين.

٢٤ - السابق.

٢٥ - السابق.

منذ فارقتها.. ولن أتغير. (٢٦)

"وإذا كان تذكر مكان الطفولة ينبثق من رغبة في الالتحاق بالماضي الخالي من وعي الزمن، وتعتمد بنا كلية الفرد عبر استدعاء النفسية التي عاشت من قبل" (٢٧)

وكما أنهى الشاعر قصيدته السابقة بهذا الملمح الذي يدل على بقاء الوفاء والحب لقريته حين أشهد الله أنه لم ولن يتغير فإنه يتجاوز ذلك إلى الدعاء على نفسه إن نسيها أو خان عهدا فيقول في قصيدته نسجها على بحر الكامل وحملت عنوان: "شُلْتُ يَمِينِي":

شُلْتُ يَمِينِي إن نسيت بلادي
أوَ خنت يوما ملحها في زادي
شُلْتُ يَمِينِي إن نسيت شجيرة
خضراء في سمخ ببطن الوادي
روحي هناك ومسجدي وطفولتي
وصهيل حرفي وانطلاق جوادي. (٢٨)

فالشاعر يبدأ قصيدته بالدعاء على يده أن يصيبها الشلل؛ وذلك إن نسي الشاعر بلاده أو خاتها، وهو يتعامل مع الذائقة العربية من خلال وصف الخائن بأنه من لا يصون العيش والملح، ويكرر الدعاء بشلل يمينه إن نسي حتى ولو شجيرة خضراء؛ فإن أقل شيء في بلاده جدير بأن يتذكره الشاعر ولا ينساه وأن يستحق العقاب بشلل يمينه إن نسي حتى ولو شجيرة في بلاده الحبيبة (سمخ) ففي قريته أشياء محفورة في الذاكرة ومنها المسجد الذي يضفي على المكان قدسية، والمساجد لا شك موجودة ومنتشرة في كل مكان يحل به الشاعر، لكنه هنا مسجد له رمزية خاصة ودلالة معينة في نفسه؛ لذا فهو يضيف إليه الياء فيقول (مسجدي) فكأنه جزء من كينونة الشاعر، وهناك أيضا في سمخ طفولة الشاعر وأيامه الأولى التي لا زالت تعانق الذاكرة، وتفرض عليه حضورا في الأفراح والأتراح، فهذا هو موطن الطفولة الأولى يلوح للشاعر وهو يرثي شقيقه الشاعر الراحل أحمد مفلح في قصيدته (دمعتان، على أخي الشاعر أحمد مفلح وعلى وطني) فيقول مخاطبا أخاه الذي رحل ولم يدرك حلمه في العودة إلى مسقط رأسيهما:

كم كنت ترجو بأن نمضي إلى البلد

٢٦ - السابق.

٢٧ - هدى عطية عبد الغفار: جماليات المكان في الشعر المعاصر، ص ١٩٦.

٢٨ - السابق ص ٤٨.

وأن نسير معا فيها يدا بيد
 كم كنت تأمل أن نلقى بحيرتنا
 ونمتطي صهوة الأمواج والزبد
 كم كنت تحلم أن نمضي إلى سمخ
 فيورق العمر بعد الهم والنكد
 وأن نشم عبيرا من سنابلنا
 وأن نطل على بيسان أو صفد
 وما حسبت بأن نبقى بلا وطن
 ولا قبور ولا أهل ولا سند
 وأن تطول مع الأيام غربتنا
 وأن نظل ضحايا الظلم للأبد. (٢٩)

فهو هنا يثير مواجعا ويصحبنا في رحلة الحلم الذي لم يتحقق، والأمنيات التي دفنت بموت شقيقه تلك الأمنيات التي طالما حلما بها معا، وتمنيا أن يعودا إلى موطن الطفولة، وهما يسيران معا يدا بيد، يسيران معا على ضفاف البحيرة، فيورق العمر الذي جف في الغربة، ويعود ربيعا تسترد فيه شجرة العمر أوراقها بعد أن أسقطها خريف الهم والنكد، كما تمنى الراحل أن يعودا معا فيتنسمان عبير السنابل والحقول، وأن يطوفا معا في ربوع فلسطين في بيسان أو صفد، ولكن كل تلك الأمنيات تحطمت برحيل الشاعر أحمد مفلح في الغربة التي فقد فيها معا الوطن والأهل والسند، بل وفقدنا حتى القبور وهو قمة الاغتراب الذي طال في ظل ذلك الظلم، وهكذا "تنطلق تباريح المكان في رحلة الرصد والتقصي، لتستدعي في حلقات الرصد المتلاحمة، فلذة حية من أرباض الفترة" (٣٠)

وتلك فترة الطفولة في قريته سمخ تلقي بظلالها على نبض الشاعر، فيصور ذلك النبض ويمنحه وجودا في شعره، وهذا شأن الشاعر الأصيل "وليس فقط على الشاعر الأصيل أن يتمتع بقدرة الخلق والإبداع التي هي روح الفن، ولكن عليه أن يتمتع أيضا بالقدرة على الاستجلاء التي هي جوهر الجمال، وبالمزج بين معا قدرة النفاذ والتجوال وقدرة التأمل والخلق يستطيع الفنان الحق أن يزيح الحجب ليجلو العوالم والمعاني؛ لأنه موهوب، وهكذا يتواصل الوعي الشعري مع المكان خارج منطق القياس والأبعاد، ومثلما يصيغ المكان حياة الإنسان فإن

٢٩ - السابق ص: ١١٩.

٣٠ - د. حسام عقل: تجليات المكان في القصيدة المصرية الجديدة، ص ٢٢. البيئات الثقافية والتنوع الأدبي بالجيزة ٢٠١٦م.

هذا الكائن الخلاق يستجيب أيضا لإعادة صياغته" (٣١) وهكذا تجاوزت دلالة المكان الطفولي عند الشاعر محمود مفلح الفكرة الذهنية المجردة والجزئية لتصبح دلالة إنسانية رحبة نجح الشاعر في توظيفها، فصار المكان الطفولي مجسدا لركن من أركان بنائه الشعري لا ينفصل ولا ينفصم عنه.

المكان ... الوطن

"كانت فلسطين في نكبتها ومعركتها المقدسة الحية الباقية الممتدة مصدرا للإلهام، فهي باعتبارها بؤرة معركة (التجمع والمقاومة) قد هزت الشعراء في كل مكان وكان شعراء فلسطين بالطبع في مقدمة من تأثروا بالأحداث" (٣٢) فهم عاشوا المحنة وانفعلوا بها، ودفعوا الضريبة من أعمارهم، والشاعر هو أول من ينفعل بالآلام ووطنه ومواجهه ويصور أفراده وأترابه. "قد يمثل الشاعر الحلم والمثال، أي أنه يغشى الواقع بغلالة الوهم والخيال، ويبدعه كما يتمناه أن يكون، يبدع وطننا آخر وإنسانا آخر من أنقاض الوطن المهزوم وإهاب الإنسان المتخاذل إلا أن الأحداث تدع الشاعر يُحَدِّقُ بالواقع ويبصره على حقيقته، وعندئذ تتداعى قباب الحلم وقصور الكبرياء ولا تخلف في نفسه إلا شعورا واحدا، مطلقا هو شعور الخزي والعار" (٣٣) وقد كان مفلح وعائلته ممن عايشوا معاناة فلسطين فهتف:

فالجرح أوله بلد

والعمر أوله وأوسطه وآخره نكد

والبيت لا سقف لديه ولا عمد

لو تعلمون عن الجراحات العميقة في الجسد

وعن العذابات التي تلتف حول رقابنا حبلا مسد. (٣٤)

فمعاناة الشاعر وجراحه مرتبطة بوطنه وبلده الذي يعاني ويذوق أصناف الإيذاء وهو ما يجرح شعور الشاعر ويطوق عنقه فالوطن في محنته هذه ضائع تائه بل قد تأكل من القاموس كما أشار وهو يرثي زوجه وأم أولاده في قصيدته

٣١ - فتحي سعيد: مقال ماذا جرى للشعر والشعراء، مجلة الشعر ص٦ - العدد ٥٢ أكتوبر ١٩٨٨م.

٣٢ - أنور الجندي: الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع، مطبعة الرسالة، بدون، ص٣٨٣.

٣٣ - إيليا الحاوي: عمر أبو ريشة شاعر الجمال والقتال، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢ ص١٣٩.

٣٤ - ديوان: لا تهدموا البرج الأخير ص٦٠.

سكن حين قال:

ملأت بيتي فرسانا غدو وطنا
لما تأكل في قاموسنا الوطن. (٣٥)

فالعذو قد كدر الحياة على شعب فلسطين وضيق عليهم سبل العيش:
ولا يحسبون لشيء حسابا كأنأ بعوض^٣

يدبُوننا بالرصاص الكثيف

وإن أشفقوا .. فالرصاص الكثيف!!

ومنذ عقود وهم يبطشون وما من أحد!

ويسقوننا الموت سما ز عافا

وما من أحد

ومنذ عقود وهم يسحقون البراءة في الطفل

ولا من أحد. (٣٦)

ففي ذلك البطش والقهر الذي تعدى الحد، فالعذو لا يرحم أحدا بل إن شففته
هي الرصاص الكثيف والموت سما ز عافا وهم يسحقون براءة الطفل منذ
سنوات طويلة.

وهذا الهم وتلك المعاناة نجدها في الذات الشاعرة على طول الطريق حين
يصور معاناة أهل فلسطين وتجرحهم للمرارة بكل صنوفها، والمحن بشتى
ألوانها والشاعر المأزوم يعبر عن تلك المعاناة في قصيدته الممتلئة بالشجن
والتي تحمل عنوان (فلسطيني) فيقول:

ولكني فلسطيني

وما وجدوا سوى ظهري لأمطار السكاكين

لأنني من فلسطين!

وقالوا: أنت ممنوع سوى من جوف تنين

لأنك من فلسطين

وقالوا: أنت مطلوب بأن تبقى بلا ظهر

وتبقى عاريا في الشمس مقطوع الشرايين

لأنك من فلسطين

فلا تسأل عن الأسباب .. عن سر القوانين

فأنت علامة استفهام منذ بداية التطبيع

٣٥ - السابق ص ١٨ .

٣٦ - السابق ص ٧٩، ٨٠ .

حتى حفلة التهويد.. حتى الكاف والنون
 لأنك يا حبيب القلب يا عيني فلسطيني. (٣٧)

وبهذا الشجن الممتزج بالسخرية المرة يعبر عن الواقع المرّ و الاغتراب الذي
 يحياه الفلسطيني، ورغم هذا هو ما زال يدعو إلى التمسك بالوطن والبقاء فيه؛
 فالبقاء فيه مع المعاناة أفضل وأكرم في عينه من ترك الوطن اختيارا والبحث
 عن مكان وادع وعيش هائئ في بلد آخر؛ لذا فهو يبدأ قصيدته (سؤال مشروع)
 بمقدمة تاريخية نثرية يستعيد فيها من التاريخ رد المعتمد بن عباد على
 "ألفونسو" حين رفض التصالح معه على أن يكون تابعاً له فقال: لأن أكون
 راعياً لجمال "يوسف بن تاشفين" أكرم من أكون راعياً لخنازير "ألفونسو"
 والشاعر هنا يرى أن البقاء في الوطن هو العزة والكرامة والنخوة ما لم يضطر
 الإنسان اضطراراً إلى النزوح عنه؛ لذا فهو ييكت هؤلاء الفارين بأسئلة متتالية
 ويهتف بهم:

"إلى أين تمضون؟! إن فلسطين ليست هناك

وإن الديوك التي توقظ الفجر .. ليست هناك

إلى أين تمضون؟! إلى البحر والقهر ثم الهلاك" (٣٨)

إن الشاعر هنا يرى أن البعد عن الوطن هو الهلاك والهوان و أن البقاء في
 الوطن هو الحياة والكرامة حتى وإن كانت تلك الحياة في المخيمات فيقول:

"لمن تتركون المخيم، والسير في طرقات المخيم عند المساء؟

لمن تتركون فلسطين فوق الرصيف تنادي ولا أحد حافل بالنداء؟

لمن تترك الشاي بالميرمية يشفي المصابين من كل داء

وفنجان قهوة جارك قبل النزول إلى الشغل

يدعوك إلى جلسة من إخاء. (٣٩)

والشاعر هنا يساءل هؤلاء الذاهبين ويخاطبهم في لغة بسيطة تناسب في
 شاعرية تناسب شتى المستويات، حتى أننا نلاحظ استخدامه للكلمات التي
 يستخدمها الناس في حياتهم اليومية مثل كلمة (الشغل) و(الشاي بالميرمية)
 و(فنجان القهوة) وكلها أمور تذكرهم بحياتهم وأصالتهم وامتدادهم إلى الوطن،

* القصيدة تجري على تفعيلية (مفاعلتن) وهي تفعيلية البحر الوافر، إلا أنه هنا في هذا السطر
 الشعري نجد أن كلمة استفهام من حقها أن تتون بالكسر، ولكنه أكتفى بكسر الميم فألجأته
 الضرورة الشعرية إلى ذلك الأمر.

٣٧ - السابق ص ١٠٠، ١٠١.

٣٨ - السابق ص ١٠٧.

٣٩ - السابق.

ثم ها هو يواصل السؤال:

"لماذا تركتم طيور المخيم غارقة بالدماء؟!

لماذا نسيتم شبابا كأنهم الورد في قبضة السجن

يمتصهم برد الشتاء؟!

لمن تتركون الجذور التي أنبتت كلّ أوراقكم أيها الأشقياء

لماذا تفرون مثل الطيور التي باغتتها الرصاصة

إلى بلد ليس فيها لكم غير ذل المنافي وبعض الحساء؟ (٤٠)

والشاعر هنا يشتد على الفارين من الوطن والهاربين من التضحيات، ولا

يدفعهم إلى هذا الهروب سوى الخوف والذل والطمع في عيش أهنأ؛ لذلك يشتد

عليهم في النكير ويخبرهم أنهم ما طلبوا غير الذل والنسيان والضياع فيقول لهم:

تظنون أن بها مجدكم، وأن الطريق بها سالكٌ للسماء؟

غدا سوف يكبر أبنائكم

غدا سوف ينسون أسماءكم، وأسماء آبائكم

سوف ينسون حتى حروف الهجاء

وحين تعودون بعد فوات الأوان ستلعنكم

لافتات المخيم، شاهدات القبور

سيلعنكم حتى الهواء

ولن تجدوا غير قبر كبير كتبنا عليه

هم الطارئون.. ونحن البقاء. (٤١)

وبهذه النهاية المكثفة يختتم الشاعر قصيدته معلنا: أن المضحي والصامد في

أرضه هو المستحق للنصر والخلود، أما الهارب من ميدان البذل باغترابه

وهجرته راضيا فلا يستحق إلا النسيان؛ لأن تغربه هو التغرب السلبي الذي لم

يرغم عليه "فالاغتراب في نظر (جان جاك روسو) تنازعه جانبان: ايجابي

وسلبي؛ فأن يسلم الإنسان ذاته إلى الكل، وأن يضحى بها في سبيل هدف نبيل

وكبير، كقيام المجتمع أو دفاعا عن الوطن.. فهذا اغتراب إيجابي" (٤٢)

ولعل هذه الشحنة الشعورية قد وصلت إلينا عن طريق تلك الأدوات واللغة

التي استخدمها الشاعر في قصيدته، وأن الشاعر قد أوصل لنا الصدق الفني في

قصيدته فهو شاعر جيّد، والشاعر الجيّد والمعاني الذي تفترسه حسرة

التجربة الكلية والمعاناة الكاملة، فيبذل أعصابه دونها، حتى تستجيب له الرؤيا

٤٠ - السابق ص ١٠٧، ١٠٨.

٤١ - السابق.

٤٢ - هدى عطية عبد الغفار : جماليات المكان في الشعر المعاصر ، ص ٢٠٤.

وينزل عليه القول وتحضره الصور والرموز، فتشعر إثر الانتهاء من مشاركته في التأمل والتقصي أنه قتل موضوعها وأماته" (٤٣) وهذا هو عين ما صنعه مفلح حين أشعرنا بقيمة الوطن، وقيمة البقاء فيه والصمود على أرضه والتضحية من أجل تحريره.

المكان .. الغربية والمنفى

"وإذا كان منبع الشعر هو الوجدان، وارتباط الإنسان بالمكان ارتباطاً وجدانياً، فإن أقوى البواعث وأحقها الداعية إلى قول الشعر هو الوجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة عند فراقها وتذكر عهدها وعهودهم الحميدة فيها" (٤٤)

وكثير منهم ذاق آلام الغربية وتجرع مرارة التهجير القسري، وفي مناهة هذا الاغتراب عن الوطن والمعاناة عاش مفلح حياته فذاق آلام الغربية وتجرع مرارة التهجير القسري بعيداً عن فلسطين، وها هو يصور رحلة الغربية والوحدة في قصيدته (رحلة العمر) حين يقول:

قدر الله أن أظل وحيداً
وأعاني هذا الشقاء الجديداً
قدر الله أن أدوس على الجمر
طويلاً وأن أعض الحديداً
هكذا المرء قد يكون شقياً
في بلاد وقد يكون سعيداً
لا تلوّموا شيخاً إذا فاض وجداً
لا تمسوا غرامه فيزيداً
لا تلمني إذا أطلت دموعي
ليس قلبي رملاً ولا جلوداً. (٤٥)

فمعاناة الغربية وألم الفقد والوحدة تيمات يشتغل عليهم الشاعر طول الوقت ليبوح بما يعتمل في صدره الجريح مازجاً بين الوجد الخاص والوجد العام، وكيف لا يشعر بهذا الشعور والأحباب من حوله يرتحلون، ومن غربة إلى غربة تمضي جموعهم فيهدف الشاعر في قصيدته راحلون: كل الذين أحبهم رحلوا

٤٣ - عمر أبو ريشة شاعر الجمال والقتال ص ٨٩.

٤٤ - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة ط ٢، دار الغرب الإسلامي ص ٢٩٤.

٤٥ - السابق ص ٣٨.

لم يبق إلا أنت يا حبل!
 لم تبق إلا جمرة خدمت
 والدمع يوقظها فتشتعل! (٤٦)

فما زال رحيل الأحباب يبكي عيونه ويدمي مشاعره ويشعل الجمر في
 حناياه، وكم ارتقب مقدمهم واجتماع الشمل بهم في موطنه فما تهيأ له ذلك:
 قالوا غدا يأتون في عجل
 كم ذا بلغت غدا وما وصلوا. (٤٧)

ثم هو يصور حاله في وحدته وانقطاعه من أحبائه فيقول:
 فعلام تبقى نخلة يبست
 والناس إن مروا بها جفلوا
 لا همسة منهم فتسمعها
 لا ضجة بالباب إن دخلوا
 لا أين كنت هناك يا ولدي
 إنني بقيت عليك منشغل. (٤٨)

فغياب الأحبة يوجعه حتي يشنق إلى ضجتهم والانشغال عليهم، ويرى الحياة
 من بعدهم خالية من بهجتها ورونقها وحيويتها:
 لا موسم الزيتون أدركنا
 وبه جرار الزيت تحتفل
 لا وردة حمراء أقطفها
 لحبيبتني وأقول يا عسل. (٤٩)

خلت الحياة بفقدان أحبائه من كل جمال في هذا المكان فعلام البقاء فيه وحيدا
 يعاني ألم الفقد، وكيف يبقى وحيدا وهم السند والدفع:
 وإذا بقيت بلا عصاك ولا
 ثوب يقينك وضافت الحيل
 فعلام لا تروي روايتهم
 وتقول إنني سوف أرتحل. (٥٠)

وأن أفسى ألوان الغربة هي تلك التي تنتهي بموت الغريب بعيدا عن داره

٤٦ - السابق ص ٣٢.

٤٧ - السابق.

٤٨ - السابق.

٤٩ - السابق ص ٣٣.

٥٠ - السابق.

وموطنه، وتنتهي حلمه في العودة ولقاء الأحباب، وهذا ما يحدثنا الشاعر عنه وهو يرثي أخاه الذي مات غريبا وما حسبت بأن نبقي بلا وطن ولا قبور ولا أهل ولا سند وأن تطول مع الأيام غربتنا وأن نظل ضحايا الظلم للأبد فكم تحملت من قهر ومن شظف وأنت أجلد في البلوى من الجلد وكلما برقت في الليل بارقة رأيت خطونا شددت إلى وتد أقول يا بلدا ضمت رفات أخي هل تشعرين بقبر فيك منفرد قد مات فيك غريبا لا صريخ له وكان أحمد مثل البلبل الغرد.^(٥١)

بتلك البكائية التي يرثي الشاعر فيها أخاه يبين كيف كانت أنانيه تتوجه نحو العودة للوطن، لكن المطاف قد انتهى به إلى الموت غريبا ولا بواكي له؛ وهو أمر يعجز لسان الشاعر عن المقال: ماذا أقول إذا كانت قصائدنا تبكي ولا أحد يبكي على أحد تفرق الشمل فالأبناء قد نزحوا والأمهات كسيرات بلا عضد ضاقت بنا الأرض إلا بعض يابسة خلف البحار أرادتنا ولم نرد ماذا أقول لشعب صار مضطهدا فمن لشعب كسير القلب مضطهد.^(٥٢)

وهو يسير مع هذا الوجد في الغربة يشدو بقصائده الباكية التي تبكي أبياتها حين تنعدم المواساة، وتموت المشاعر فلا يبكي أحد على أحد، وقد بلغ بهم الشتات حد التمزق؛ فقد تفرق الأبناء عن الآباء، والأمهات عن أبنائهن، بل ولفظت المنافي الجميع إلا بعض الأماكن التي قبلت بها، وهي من السوء بمكان وحال يجعل المنفي لا يريد الذهاب إليها والمقامة فيها، والشعب على تلك الحالة

^{٥١} - السابق ص ١١٩، ١٢٠.

^{٥٢} - السابق.

يئن من القهر والاضطهاد ولا أحد يسمع شكواه أو يرحم أناته. فمرارة الوحدة وألم الفقد يضاف إليه مرارات أخرى للمغترب الفلسطيني ولا سيما المقيمين بالملاجئ والمخيمات؛ تلك الأماكن التي تضم الأجساد وتقر منها القلوب؛ فالإنسان فيها حاضر بجسمه غائب عنها بقلبه منقسم عنها بوجدانه مشدود إلى وطنه وهويته وانتمائه وذاكرته المكانية" فلا يمكن ألبتة تصور هوية مائزة في غيبة المكان، ولا يتصور أن يئوب الطير النافر أو السابح في المنافي دون أن تتصور له وكر يأوي إليه وذاكرة مكانية راسخة تستوعب أوبته وحضوره المستعاد الجديد" (٥٣)

وهنا يعيش اللاجئ مرارة مركبة ومعاناة دائمة وهمّ متزايد؛ فيضاف إلى رصيد الوحدة رصيد من القلق أحياناً، ومن المذلة في أحيان أخرى؛ فهذا هو الشاعر يمثل لنا حالة اللاجئ في قصيدته (لجوء) حين يصف لنا حاله وحال انتظاره لأحبائه أو حتى خبراً عنهم فيقول:

أنا منذ عام أو يزيد

تمتد كفي للوداع ولا تريد

وأظل مرتبكاً

لعل رسالة سقطت هنا

سهواً بصندوق البريد. (٥٤)

وها هو الشاعر يصور لونا من الحياة في المنافي حين ينتظر اللاجئ المعونة التي تقيم أوده من يد خصومه أو من يعاونون خصومه، فيسيطر لنا الشاعر في سخرية مزرّة قصيدة بعنوان (إعانات) يقول فيها:

يقول جاري لقد جاءت معونتنا

فيها الأرز وفيها الفول والعدسُ

غدا عليك بأن تمضي لحضرتها

قبل الديوك وفي الطابور تنغرس

هذي حقوقكم جاءت مقررة

ودعك ممن لغوا فيها ومن همسوا

كل الذين على أشكالكم وقفوا

وكلهم فرحوا فيها وما نبسوا

وكلهم أسر عوا يبعون حصتهم

٥٣ - د. حسام عقل: تجليات المكان في القصيدة المصرية، البيئات الثقافية والتنوع الأدبي بالجيزة، ص ١٧.

٥٤ - السابق ص ٩٠.

وكلهم في مياه الذل منغمس
دع عنك ما قيل أننا أمة نُفْتُ
أو أنها عثرت في جريها الفرسُ
ودع زمانا مضى وادفن مآثره
فالناس مُفْتَرَسٌ فيه ومفْتَرَسٌ. (٥٥)

ها هو الشاعر يبدأ ببناء من جار له ليلحق بركب الطالبين للمعونة قبل ديوك
الفجر لينغرس في الطابور ليدرك حصته من الفول والأرز والعدس، وعليه أن
يرضى ويفرح، فهذه هي حقوق أشكاله، فعليه أن يعيش الواقع وينسى ماضيه
وأيام عزته ومفاخره ومآثره، لأن دنيا الواقع ليست كذلك وهذا حالهم في انتظار
المعونة يصور ذلك:

نظل والشمس تشوينا على مهل
حتى ندوخ، وحتى يقرع الجرس
وحين يسقط منا واحد تعباً
قالوا يمثل .. والتمثيل مقْتَبَسٌ. (٥٦)

يصف الشاعر تلك الحال المهينة من الانتظار في الشمس حتى يلحقهم
التعب، فإن سقط منهم أحد أو أصيب بضربة شمس فإن موزعي المعونة لا
ينظرون إليه نظرة إشفاق، وإنما يتهمون بالتمثيل، ثم ها هو يعود إلى التذكير
بحرمة الطابور ونسيان الماضي، فهذا هو الواقع الذي يعيشه المغترب.

دع عنك هذا فلطابور حرمة
وانس الذي كان إن أمس مدرس
لو كنت في البلد الأصلي صارية
فأنت في الغربية السوداء منطمس. (٥٧)

وبهذا البيت الذي يكتف فيه الشاعر أحساس الغربية ليخرج أشبه بالحكمة
مصوراً مدى معاناة المغترب، ثم هو في آخر القصيدة يرسل بيتاً آخر ينبئ عن
قلقه فيقول:

إني لأخشى بأن نبقى بلا وطن
ويشغل الناس هذا الفول والعدس. (٥٨)

ثم هو يصور لونا من القهر يعاني منه اللاجئ، وليس أشد قهراً لنفس الأب

٥٥ - السابق ص ٦٥.

٥٦ - السابق ص ٦٦.

٥٧ - السابق.

٥٨ - السابق.

من عجزه عن تلبية حاجة ولده وإدخال السرور عليه في يوم العيد، وهذا ما سطره الشاعر في قصيدته (اعتذار لاجئ لولده صبيحة العيد) حين قال:

لو كنت أملك أن أشري لك اللعبا
وأمسح الدمع من عينيك والعتبا
لو كنت أملك شيئا ما بخلت به
ولا رأيتك يوم العيد مضطربا
إني لأخجل أن ألقاك منعزلا
عن الصغار وأن ألقاك مكتنبا. (٥٩)

وليس هذا الحال الموصوف في عيد واحد بل هو في أعياد متكررة؛ فهو في المنفى يقتله الشوق والحنين إلى بلده فيقول في قصيدة (عيد آخر):

العيد مرّ ولم أرجع إلى بلدي
ولم أقل لشقيقي طبت يا سندي
العيد مرّ ولم أوقد به حطبا
ولم أوزع به الحلوى على أحد. (٦٠)

ففي هذا الحرمان يقضي الشاعر عيدا من بعد عيد يئنُّ في غربته، وينفطر قلبه حنينا إلى بلده التي نأى عنه طويلا فيقول:

بعدت عنها وقد جفت حناجرنا
كأن غربتنا حبلان من مسد
وكلما خُلْتُ عقدة نهضت
من عالم الغيب آلاف من العُقد. (٦١)

فالمسافات تباعدت، ومعوقات العودة تزداد، والشوق يستبد به إلى كل معالم وطنه فيقول:

الله يا زيتون بلدتنا
لو كنت أفرش في أفيائه جسدي
لو كنت أسمع آيات معطرة
من مسجد الحي كي أروي بها كبدي. (٦٢)

هذا الشوق المسافر في شرايينه، والظمأ الممتد إلى بلده، يزيد من معاناته ومواجهه، ولكنه يسمع على البعد نداء بلده وهو يأتيه مطمئنا فاتحا له طاقة أمل

٥٩ - السابق ص ٤٥.

٦٠ - السابق ص ٤٦.

٦١ - السابق.

٦٢ - السابق.

فيأتي الجواب منها:

قالت له ونداء الروح في فمها

هون عليك فلن نشقى إلى الأبد

لا تياسن فإن الله ناصرنا

رب السموات لم يولد ولم يلد. (٦٣)

وهكذا يختم قصيدته بذلك الشعاع النوراني من الأمل المستمد من قدرة الله

تعالى القادر على إنهاء تلك المعاناة من الغربة والتشريد والشتات والشقاء، حتى

إننا لنكاد نهتف معه في نهاية قصيدته بثقتنا المستمدة من ذلك الشعاع النوراني

بهتافه الذي ردهه في نهاية قصيدته (اعتذار لاجئ لولده صبيحة العيد) حين قال:

لا بد يوماً به تلقى أحببتنا

ويكشف الله عنا الضر والنصبا

وسوف تغدو خوابي الزيت طافحة

ومن كروم الروابي نعصر العنبا

ويرجع الناس كل الناس صاهلة

خيولهم ويعود الحق منتصباً. (٦٤)

الخاتمة والنتائج

من خلال تتبع شعرية المكان في ديوان (لا تهدموا البرج الأخير) للشاعر

الفلسطيني محمود مفلح خلص البحث إلى النتائج الآتية:

١- إن توظيف المكان في الشعر يُعدُّ أحد الروافد التي تثري التجربة الشعرية

فتزداد رحابة وغنى، كما أنه يسهم في تكوين البناء الشعري ويضفي جمالياته

فيشع بذلك وجدان المتلقي الذي يشارك الشاعر أحاسيسه وذاكراته وتجاربه

الشعرية.

٢- أكد البحث على أن شعر محمود مفلح جدير بالدراسة، ولا سيما الدراسات

التي تتعلق بالمكان وتوظيفه في شعره في سائر دواوينه الأخرى.

٢- أكد البحث على قدرة الشاعر محمود مفلح على توظيف المكان في البناء

الشعري؛ حيث إن دلالة المكان في شعره لم تكن ترجمة لفكرة ذهنية، بل كانت

تجربة إنسانية حية رحية.

٣- أكد البحث نجاح الشاعر في توظيف المكان كرافد أساسي في التكييف

الدرامي لقصائده وقدرته على استدعاء أماكن الطفولة والغربة.

٤- أكد البحث على قدرة الشاعر على الوصف لأدق تفاصيل المكان وما يرتبط

٦٣ - السابق ص ٤٧.

٦٤ - السابق ص ٤٥.

به من مشاعر وجدانية لتلك الأماكن التي تمثل خصوصية لدى الشاعر.

٥- كشف البحث من خلال التحليل للقصائد التي تشع بشعرية المكان في الطفولة والوطن والغربة عن طاقات شعرية متفجرة يمتلكها الشاعر مع لغة سامية عبرت بصدق ووعي عن جماليات المكان الفلسطيني.

٦- أكد البحث على ملمح هام من ملامح شخصية الشاعر وهو انتمائه القومي لوطنه وحبه الشديد له، وألمه لما يلّم به واستعداده للدفاع عنه بالنفس والنفيس في سبيل تحريره والعودة إليه.

المراجع

١. جماليات المكان في الشعر المعاصر: هدى عطية عبد الغفار، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٤م.
٢. لسان العرب لابن منظور الأفريقي دار صادر بيروت طبعة ١٩٦٨م.
٣. المعجم الفلسفي: إبراهيم مذكور، مجمع اللغة العربية القاهرة ١٩٨٣م.
٤. إضاءة النص: إعتدال عثمان، دار الحدائق بيروت لبنان ١٩٨٨م.
٥. جماليات المكان: جاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٤م.
٦. البيئات الثقافية والتنوع الأدبي بالجيزة كتاب مؤتمر اليوم الواحد الأدبي بفرع ثقافة الجيزة دورة الدكتور عبد الوهاب عزام ٢٠١٦م - بحث تجليات المكان في القصيدة المصرية الجديدة للدكتور حسام عقل.
٧. ديوان لا تهدموا البرج الأخير للشاعر محمود مفلح القاهرة دار بورصة الكتب للنشر والتوزيع ٢٠١٦م.
٨. تجليات طائر العمر الجميل دراسة نقدية في أشعار سيد حجاب إعداد وتقديم محمد علي عزب صدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة إقليم القاهرة وشمال الصعيد ٢٠١٧م.
٩. جماليات المكان عبر ذاكرة الطفولة (قراءة في الانبهار والدهشة لزيد مطيع دماج. علي حداد ضمن كتاب (زيد مطيع دماج، دراسات وقراءات نقدية اليمن ٢٠٠٩م).
١٠. الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع، أنور الجندي مطبعة الرسالة بدون.
١١. عمر أبو ريشة شاعر الجمال والقتال بقلم إيليا الحاوي ط دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٢م.
١٢. منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة ط٢، دار الغرب الإسلامي.

المواقع والدوريات والمصادر الأخرى:

١. موقع الشاعر على شبكة الألوكة الثقافية.
٢. ملامح جيل الصحوة في شعر محمود مفلح دراسة للدكتور خليل أبو ذياب مجلة الأدب الإسلامي العدد ٤٨ - ٤٦٦ هـ/ ٢٠٠٥م.
٣. مقال: ماذا جرى للشعر والشعراء، فتحي سعيد مجلة الشعر - العدد ٥٢ أكتوبر ١٩٨٨م.
٤. لقاء خاص مع الشاعر برابطة القلم العربي يوم السبت الثامن عشر من نوفمبر ٢٠١٧م.
٥. مفهوم المكان في القصيدة العربية، د اعتاب بالخير، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد: ١١٥/١١٤، سنة: ٢٠٠٠م.